

# الديني والسياسي في محنة خلق القرآن في القيروان في القرن الثالث الهجري

حمادي ذويب  
باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

من الواضح أنّ الفقهاء السنّيين في أواخر القرن الثاني الهجري في القيروان، سواء كانوا حنفيين أو مالكيين كان لديهم شبه إجماع، على اعتبار مسألة خلق القرآن من المسائل الاعتقاديّة المحوريّة التي تميّز هويّة المسلم عن هويّة الكافر، وهذا ما جعل أسد بن الفرات يكفر بشرًا المريسي المعتزلي (ت 218هـ) أحد كبار المدافعين عن القول بخلق القرآن<sup>1</sup>، وهو ما دفع سحنون إلى طمأنة أحد أصحابه الذي أصابه قلق في مرض موته طالما كان معتقدًا أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق<sup>2</sup>.

1- انظر أبا الحسن عبد العزيز الكناني (ت 240 هـ)، الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن" والمردود عليه هو بشر المريسي، تحقيق علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

2- روى المالكي خبرًا عن يحيى بن عون يقول فيه "دخلت مع سحنون على ابن القصار وهو مريض وكان من أصحابه، وأصابه في علته قلق، فقال له: يا ابن القصار: ما هذا القلق الذي أنت فيه؟ قال: الموت والقنوم على الله عزّ وجلّ فقال له سحنون: ألسنت مصدقًا بالرسول أولهم وآخرهم، والبعث، والحساب، والجنة والنار؟ وأنّ أفضل هذه الأمة بعد نبينا أبو بكر ثم عمر؟ وأن القرآن كلام الله غير مخلوق... قال إي والله فضرب سحنون بيديه على ضبعيه وقال له: مت إذا شئت"، رياض النفوس، 8-367/1.

## تقديم:

لا ريب في أنّ مسألة خلق القرآن من المسائل الكلامية الاعتقادية التي تنتمي إلى الماضي، إلا أنّها لا تزال مع ذلك تؤثر في الفكر الإسلامي المعاصر، وتشقّ صفوف ممثليه مثلما فرقت بين مفكره قديماً. ولئن اختلفت طرائق التعامل مع هذه المسألة في عصرنا<sup>3</sup>، فإنّ ما يستخلص من الدراسات المشرقية والاستشراقية إجمالاً، هو قلة الاهتمام بحضور هذه المسألة في المغرب الإسلامي عامّة، وفي القيروان خاصّة، وبما ترتّب عليها من نتائج وانعكاسات.

## منطلق البحث:

وقد رمنا من هذا المنطلق، أن نركّز بحثنا على مسألة خلق القرآن وما حفّ بها من محنة في القيروان. وسنسعى إلى دراسة ما حصل في التّاريخ دون أن ندخل طرفاً في الصّراع الذي حصل في عهود قديمة كما يفعل بعض الدّارسين المعاصرين.<sup>4</sup>

## 1- التعدد الفقهي في القيروان:

نشير في البدء إلى أنّ المعلومات الخاصة بجذور الخوض في مسألة خلق القرآن في القيروان قليلة لضياح المصادر الكلامية الاعتزالية والسنية في هذا المبحث؛ إلا أنّنا مع ذلك، نعلم أنّ القيروان بعد الفتح الإسلاميّ، غدت بمثابة المرجل الذي يغلي بالدراسات والمناظرات المذهبية الكلامية والفقهيّة التي جمعت أهل السنّة والمعتزلة والخوارج والشّيعية والظاهرية والأوزاعيّة. وما يبرز هذا الرّأي، الخبر الذي نقله القاضي

3- نذكر على سبيل المثال موقف الشيخ يوسف القرضاوي الذي يعتبر أنّ إثارة مسألة خلق القرآن لا معنى له في عصرنا وأنّ المشكل الآن ليس مع أصحاب هذا القول وإنما مع من ينكر أن القرآن وحي من الله ومع من يؤمنون به لكنهم لا يعتبرونه مرجعاً معصوماً يحوي أحكاماً وتشريعات ومبادئ ينبغي الالتزام بها. انظر:

Youssef El Qardaoui, Méthode du discours religieux selon la conception coranique (www.isesco.org.ma)

وانظر أيضاً تصريح بعض المعاصرين من الأشاعرة بخلق القرآن ومنهم وهبي غاوجي القائل: "إنّ الكلام ينقسم إلى قسمين الأوّل الكلام اللفظي والثاني الكلام النفسي، فأما اللفظي فهو ذلك القرآن الكريم المنزّل على سيدنا محمد وكذا سائر الكتب على الرّسل، ولا ريب أنّ الكلام اللفظي مخلوق له تعالى" راجع كتابه "أركان الإيمان"، ص 52. وانظر أيضاً موقف الباحث التونسي عبد الوهاب مدب صاحب كتاب "الخروج من اللعنة" (بالفرنسية) حيث ادّعى تقديم وصفة العلاج من المرض الذي يعاني منه الإسلام. وهو في نظره الجمود والتعصّب والعنف والانغلاق. والحلّ في نظره يكمن في تحطيم صنميّة القرآن الذي يعتبره عامة المسلمين كلام الله المباشر ممّا يحول بينهم وبين إخضاعه للنظرة النقدية الصّارمة والتحليل التّاريخي النسبي على غرار ما حدث بالنسبة للتّصوص المقدسة اليهودية والمسيحية. ويذهب هذا الباحث إلى المطالبة بإعادة الاعتبار لموقف المعتزلة القائل بخلق القرآن. فهو في نظره يفتح الطريق أمام نزع القداسة عن الكتاب الذي يصبح نصّاً موحى إلهياً عبر وساطة بشرية. راجع السيد ولد أباه، المتكلّمون الجدد www.alarabiya.net وانظر بحثاً بعنوان Comment Guérir l'islam على الموقع

<http://hebdo.nouvelobs.com/hebdo/scripts/print.php>

4- راجع مثلاً عن ذلك عبد المجيد بن حمدة، ثقافة المجتمع القيرواني في القرن الثّالث للهجرة، إذ يعتبر أنّ أغلب أمراء الدولة اتّصفوا بالعدل، لكنّه يستنتي منهم من امتحن العلماء بمحنة خلق القرآن، راجع ص 38

عياض عن أبي العرب القائل: "كان ابن فرّوخ (ت 176 هـ) كتب إلى مالك يخبره أنّ بلدنا كثير البدع وأنّه أُلّف لهم كتابًا في الردّ عليهم"<sup>5</sup>. والملاحظ أنّ ابن فرّوخ كان حنفيًا، وهو من أوائل من نشر المذهب الحنفي في القيروان.

والظاهر أنّ أهميّة هذه الشخصية باعتبار ريادتها، جعلتها موضع تنافس بين الفرق الإسلاميّة قصد جلبها إلى دائرة المنتسبين إليها؛ فالمعتزلة يدّعون أنّه ينتسب إليهم، والمالكيّة ينفون ذلك، ويروون أخبارًا تبرز عداوة للمعتزلة<sup>6</sup>، لكن ما مدى صحّة كلّ موقف؟ يبدو أنّ الجواب اليسير والسريع يتمثل في اعتبار ابن فرّوخ سنّيًا معاديًا للمعتزلة، فهذا ما توفّره لنا المصادر التّاريخيّة المالكيّة على الأقل حين تورد خبرين؛ أحدهما يتضمّن لعنه للمعتزلة؛ والثّاني يبيّن امتناعه عن الصّلاة على أحد المعتزلة<sup>7</sup>. إلّا أنّنا لا ينبغي أن نستهيّن بالمسكوت عنه في المصادر المالكيّة التي تنصّ صراحة على قول المعتزلة: "عبد الله بن فرّوخ عندنا"<sup>8</sup>. فقولها هذا له ما يدعّمه لكنّه مغيب غير منطوق به. وما هو منطوق به لا يتجاوز رمي ابن فرّوخ بالاعتزال. ولئن كنّا لا نستطيع الحكم على مواقفه الاعتقاديّة التي قد تكون وراء هذا الموقف، فإنّ موقفه السياسي الرّافض للتّعاون مع الأمير غير العادل والمبيح للخروج والتّمرد عليه، قد يكون وراء هذه "التّهمة".

ومن المعطيات المهمّة للباحث في تاريخ الحضور الاعتزالي في القيروان، ما يوجد في ترجمة ابن فرّوخ؛ حيث نجد أحد أقدم أسماء المعتزلة، وهو ابن صخر أو صخرة (صخر في رواية المالكي في "رياض النّفوس" وصخرة في رواية القاضي عياض في "ترتيب المدارك"، قد أشار هذا المعتزلي إلى إبراز مقاطعة أقطاب الفقهاء في أواخر القرن الثّاني الهجري للمعتزلة، لا في حياتهم فحسب، وإنّما بعد موتهم أيضًا من خلال رفض الصّلاة عليهم، ويروي المالكي قول سحنون: "مات رجل يقال له الرّقاء وكان من أصحاب البهلول، وكان فاضلاً فحضره ابن غانم وابن فرّوخ والبهلول، فأتي بجنّازته وبنّازة ابن صخر المعتزلي، فصلّى الرّقاء ثمّ قدّم ابن صخر المعتزلي، فقالوا لابن غانم: "البنّازة" فقال: "كلّ حيّ ميّت، قدّموا دابّتي" ولم يصلّ عليه، فقيل لابن فرّوخ: "البنّازة" فقال مثل ذلك وقام ولم يصلّ عليه، وقيل للبهلول "البنّازة" فقال مثل ذلك"<sup>9</sup>.

5- القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق محمد سالم هاشم، ط1، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1998، 198/1.

6- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

7- راجع المالكي، رياض النّفوس، 186/1.

8- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

9- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وما وقع لابن فروخ، وقع لأسد بن الفرات أيضاً (ت 213 هـ)، فأصحاب كتب الطبقات يوردون خبراً منسوباً إلى مجهولين يتضمّن اتهامه بالقول بخلق القرآن، ويوردون خبراً منسوباً إلى شخص معيّن يذكر اسمه يبرئ أسداً من هذه التّهمة<sup>10</sup>.

وحريّ بنا أن نشير إلى أنّ الأخبار المتعلقة بتبرئة كلّ من ابن فروخ، وأسد بن الفرات من الانتماء إلى المعتزلة ومن القول بخلق القرآن يكاد يكون راويها شخص واحد، هو الفقيه المالكي سحنون. وقد ذكرت "يكاد" لأنّ أحد هذه الأخبار الثلاثة رواه محمد بن سحنون عن بعض أصحاب أبيه؛ ممّا يعني أنّ الأمر يؤول في النهاية إلى سحنون. ولئن كنّا لا نبتغي من هذا الرّأي التّشكيك في ما يروى عن أحد كبار فقهاء القيروان، فإنّنا لا نرغب في إهمال ما يفيدنا به التّراث الأصولي الفقهي الذي يعد خبر الأحاد لا يفيد إلا الظنّ، وهذا يعني إزاحة صفة القطع عن تلك الأخبار وانتظار ما قد تسفر عنه البحوث أو المصادر المحقّقة في قادم الأيام.

وما يجدر الاهتمام به في ترجمة أسد بن الفرات، خيران يوثقان انشغال علماء القيروان بالمسائل الكلاميّة كروية الله<sup>11</sup>، وبمصادر التشريع وفي مقدمتها القرآن<sup>12</sup>. وما يلفت الانتباه في الخبرين بروز اسم أحد المعتزلة، وهو سليمان البراء المعتزلي، وهو سليمان بن حفص عند المالكي<sup>13</sup> واسمين آخرين يبدو أنّ أحدهما هو العنبري المعتزلي.

ومن الواضح أنّ الفقهاء السنيّين في أواخر القرن الثاني الهجري في القيروان، سواء كانوا حنفيّين أو مالكيّين كان لديهم شبه إجماع، على اعتبار مسألة خلق القرآن من المسائل الاعتقاديّة المحوريّة التي تميّز هويّة المسلم عن هويّة الكافر، وهذا ما جعل أسد بن الفرات يكفر بشراً المريسي المعتزلي (ت 218 هـ) أحد كبار

10- يقول القاضي عياض: "قال أبو العرب: كان أسد ثقة لم يرم ببذعة قال بكر بن حماد قلت لسحنون يقولون: إنّ أسداً قال بخلق القرآن، فقال: والله ما قاله. قال داود بن يحيى: رأيت أسداً يعرض التفسير فتلا هذه الآية "فاستمع لما يُوحى إنّي أنا الله لا إله إلا أنا فاعبُدني" فقال أسد: ويح أهل البدع، هلكت هوالكهم يزعمون أنّ الله خلق كلاماً يقول ذلك الكلام المخلوق "إنّي أنا الله..."، ترتيب المدارك، ص 275.

11- أورد القاضي عياض قول يحيى بن سلام: حدّث أسد يوماً بحديث الدومة، وسليمان البراء المعتزليّ في آخر المجلس فأنكر، فسمع أسد فقام إليه وجمع بين طوقيه ولحييه واستقبله بنعله فضربه حتّى أدماه وطرده من مجلسه. وقيل بل كان يقرأ عليه في تفسير المسيب بن شريك: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناضرة، وسليمان حاضر، فقال: من الانتظار يا أبا عبد الله. فأخذ أسد بتلابيبه ونعلأ غليظة بيده الأخرى، وقال: يا زنديق لتقولنّها أو لا تبصر بها عينيك. فقال سليمان: نعم تنظر"، ترتيب المدارك، ص 275.

12- روى القاضي عياض عن المالكي قوله عن عبد الله بن أبي حسان اليعصبي (ت 226 هـ) "دخل مرّة على الأغلب فإذا الجعفري والعنبري يتناظران في القرآن. فقال الجعفري إذا شيخنا أبو محمد يعينني عليكم فقال ابن أبي حسان للعنبري، ما أنت وذا، هذا بحر عميق، عليك بكذا كذا، فقال: إن كان معه أبو محمد فهذا الأمير معي، فقال ابن أبي حسان: ما للملوك والكلام في الدين، فأحفظ ذلك الأغلب" ترتيب المدارك، ص 280.

13- راجع المالكي، رياض النفوس، 1/264-265. والملاحظ أنّ سليمان هذا مختلف في نسبه إلى الإباضية بين أصحاب الطبقات في هذه الفرقة، فالوسباني اعتبره عالماً مخالفاً ولم يطمئن إلى قول من قال إنه رجع إلى أهل الحق أي الإباضية، أما الشماخي فقد رجح كونه إباضياً إلا أنه خالف في بعض المسائل، راجع سير الوسباني، مخطوط، 51/1، وانظر الشماخي، السير، 1/223.

المدافعين عن القول بخلق القرآن<sup>14</sup>، وهو ما دفع سحنون إلى طمأنة أحد أصحابه الذي أصابه قلق في مرض موته طالما كان معتقداً أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق<sup>15</sup>.

## 2- محنة خلق القرآن:

تحوّلت مسألة خلق القرآن في القيروان من مجرد مسألة عقديّة يختلف حولها ممثلو الفرق الإسلاميّة إلى محنة للنّاس عامّة وللعلماء خاصّة، عندما تدخلت فيها السّلطة السياسيّة في مناسبات عدة منها:

(1) الأمير محمد بن أبي عقال (تولّى الإمارة بين سنتي 223هـ و225هـ) يأمر بكتابة السجلات بخلق القرآن ويأمر بقراءتها على المنابر، ويحمل النّاس عليها. وكان على أهل السنّة أن يدافعوا عن عقيدتهم دفاعاً كلامياً تولد عنه جدل حادّ بين الطّرفين<sup>16</sup>.

(2) لما تولّى أحمد بن الأغلب الإمارة سنة 231 هـ، نادى من أعلى منابر المساجد بأنّ القرآن مخلوق. وبدأت محنة بعض العلماء، ففرّ عدد من النّاس إلى أماكن بعيدة عن القيروان<sup>17</sup>.

(3) المحطّة الثالثة، تتمثّل في مجلس مناظرة عقده الأمير إبراهيم الثّاني (281هـ - 289هـ) وقع الخوض فيه في مسألة خلق القرآن بين سعيد بن الحدّاد المتكلّم السنّي وعبد الله بن الأشجّ المعتزلي<sup>18</sup>.

(4) المحطّة الرّابعة، كانت هذه المحطّة الأخيرة في تاريخ الدولة الأغلبية، ويمثّلها أبو العباس عبد الله الثّاني ابن إبراهيم (289هـ - 290هـ)، وقد حكم هذا الأمير أقلّ من سنة وفي آخرها أعلن عقيدة خلق القرآن يقول القاضي النعمان: "كان أبو العباس هذا يُعنى بعلم الفتيا ويرى رأي أبي حنيفة ويذهب إليه، وينتحل القول

14- انظر أبا الحسن عبد العزيز الكناني (ت 240 هـ)، الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن" والمردود عليه هو بشر المريسي، تحقيق علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.

15- روى المالكي خبيراً عن يحيى بن عون يقول فيه "دخلت مع سحنون على ابن القصار وهو مريض وكان من أصحابه، وأصابه في عتته قلق، فقال له: يا ابن القصار: ما هذا القلق الذي أنت فيه؟ قال: الموت والقدر على الله عزّ وجلّ فقال له سحنون: ألسنت مصدقاً بالرسول أولهم وآخرهم، والبعث، والحساب، والجنّة والنار؟ وأنّ أفضل هذه الأمتة بعد نبينا أبو بكر ثم عمر؟ وأن القرآن كلام الله غير مخلوق... قال إي والله فضرب سحنون بيديه على ضبعيه وقال له: مت إذا شئت"، رياض النفوس، 8-367/1.

16- راجع حسن حسني عبد الوهاب، تراجم أغلبية، ص 244، وانظر د. عمار الهمادي، محمد بن سحنون المتكلم السنّي، ضمن بحوث ملتقى "القيروان مركز علمي مالكي"، ص 465.

17- يقول د. فريد سليمان: "وضاق أهل السنّة بذلك واختار عدد منهم الفرار بدينهم فاعتزلوا الناس ولحقوا بالرباطات؛ حيث الزهّاد والنسّاك ووجدوا في الحصون الممتدة على طول السّواحل خير ملجأ وتمركزوا في قصور جهة المنستير وجزيرة أبي شريك (أي الوطن القبلي حالياً)، وصفافس وصطفورة، أي بنزرت حالياً" السلف والعلما بإفريقية في العهد الأغلبي، ضمن بحوث ملتقى الإمام سحنون، ص 291.

18- راجع حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربيّة بإفريقيّة التونسية ص 284، وقد نقل الخبر عن المالكي في رياض النفوس أثناء ترجمته لابن الحدّاد.

بخلق القرآن وكان ذلك ممّا ينقمه عليه العامة<sup>19</sup>. وهذا الخبر تعضده بعض المصادر السنّية ككتاب "ترتيب المدارك" للقاضي عياض حيث يقول في ترجمة عيسى بن مسكين (ت 275هـ): "وبينما عيسى يقرأ عليه أصحابه إذ أخبره أنّ أبا العبّاس بن الأغلّب كتب السجّلات بخلق القرآن وأمر بقراءتها على المنابر، وأنّ يحمل النّاس عليها فهمّه ذلك وأصحابه وباتوا من أجله في غمّ فلما أصبح قال لهم عيسى: "إنّ مدّة هذا الرّجل قد انقطعت فأتى الخبر أنّه مات تلك اللّيلة"<sup>20</sup>.

ويجدر بنا أن نشير إلى أنّ هذا الخبر ورد في ترجمة عيسى بن مسكين ضمن مبحث موسوم بـ"ذكر استجابته وبراهينه" ممّا ينبّه على طابعه التمجّدي والتضخيمي للمتّرجم له. وقد تفتّن بعض الدّارسين إلى هذه الخلفيّة التي تحرّك كاتب الطّبقات، فقال: "وهكذا وصف المخبر المالكي خبر قتل أبي العبّاس عبد الله الثاني واعتبره بمثابة الخلاص الذي تمّ بمعجزة"<sup>21</sup>. والملاحظ أنّ عيسى بن مسكين كان قاضي قضاة المالكيّة قبل تولّي الأمير المذكور الحكم، وأنّ القاضي في ذلك الوقت كان محمد بن أسود الصديني المعتزلي.

ولا شكّ في أنّ الباحث في مسألة محنة خلق القرآن وصلتها بالسلطة السياسيّة تخامرّه دائماً أسئلة تتعلّق بصلة هذه المحنة بنظيرتها في الشّرق الإسلامي، وهل كانت محنة القيروان برغبة ذاتيّة من أمراء الدّولة الأغلبيّة الذين تبنّى جلهم الاعتزال عقيدة والمذهب الحنفي فقهاً؟ أم كانت تطبيقاً لأمر من الخليفة العبّاسي؟.

لئن لم يكن بحوزتنا أيّ نصّ يؤكّد أنّ محنة خلق القرآن في القيروان في محطتها الثّانية خاصّة؛ أي سنة 231 هـ كانت بأمر الخليفة العبّاسي، فإنّ لنا نصّاً يبرز أنّ الوثائق بعث في تلك السنّة إلى الأعمال بامتحان العلماء بخلق القرآن. يقول ابن تغري بردي: "السنّة الثالثة من ولاية عيسى بن منصور على مصر وهي سنة إحدى وثلاثين ومئتين، فيها ورد كتاب الخليفة هارون الوثائق إلى الأعمال بامتحان العلماء بخلق القرآن. وكان قد منع أبوه المعتصم ذلك، فامتنح النّاس ثانياً بخلق القرآن"<sup>22</sup>. ومع هذا، فإنّ المرجح لدينا أنّ ما وقع في القيروان سنة 231 هـ، كان مجرد اقتداء بسياسة الخليفة الذي شدّد في تلك السنّة بالذّات امتحان النّاس والعلماء في مسألة خلق القرآن، وقام من أجل ذلك بقتل أحد كبار رجال الحديث وهو أحمد بن نصر الخزاعي، وأمر

19- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس 1975، ص 155.

20- القاضي عياض، ترتيب المدارك، ص 497.

21- محمد الطالبي، المرجع المذكور، ص 596.

22- ابن تغري بردي، النجوم الزّاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، 2/259.

بتعليق رأسه في إحدى ساحات بغداد<sup>23</sup>. كما أمر ألا يفقدى أسرى المسلمين لدى الروم إلا إثر امتحانهم حول خلق القرآن، فمن أجاب أنه مخلوق أفرج عنه وجوزي ببعض المال ومن لم يجب ظلّ في الأسر.<sup>24</sup>

وإذا كانت محنة خلق القرآن في القيروان مجرد اقتداء بسياسة الخلافة العباسية في الظاهر، فهل ضاهتها اتساعاً وشمولاً على صعيد أول؟ وهل بلغت مثلها درجة من الغلو قلّ نظيرها؟

يبدو أنّ المحنة في القيروان كانت صورة مصغرة وملطّفة وهادئة، إن قارناها بما وقع في بغداد أو في مصر. ففي مصر مثلاً يروي الكندي أنّه: "لما أمر الواثق الناس بالمحنة في القرآن ورد كتابه إلى أبي بكر الأصم قاضي مصر فأخذ الناس بذلك فلم يبق فقيه ولا مؤذن ولا معلّم إلا أخذ بها، فهوى كثير من الناس وملئت السجون ممّن أنكرها، وأمر القاضي أن يكتب المخلوق على أبواب المساجد"<sup>25</sup>.

وليست لنا عن محنة العلماء في القيروان سوى معطيات قليلة أغلبها تتعلّق بالإمام سحنون. لكن يذكر أيضاً على الهامش عدد من الفقهاء منهم موسى بن معاوية الصمادحي (ت 225هـ) الذي تعرّض إلى مجرد قول جارح من القاضي المعتزلي ابن أبي الجواد<sup>26</sup>. ومنهم محمد بن سحنون الذي توارى خوفاً على نفسه من سليمان بن عمران (ت 270 هـ) قاضي محمد بن الأغلب لمخالفته له في المذهب ورفضه القول بخلق القرآن. وظلّ متوارياً حتّى أمّنه محمد بن الأغلب ورفع يد سليمان عنه،<sup>27</sup> ومنهم الفقيه أحمد بن يزيد الذي بعث إليه ابن أبي الجواد القاضي ليتمحنه في القرآن فتوارى منه حتى سلم.<sup>28</sup>

### 3- محنة خلق القرآن في القيروان بين الغلو والاعتدال:

قد يغلب على ظنّنا أنّ مفاهيم الغلو والاعتدال والتسامح من مكتسبات العصر الحديث، إلا أنّ الحقيقة غير ذلك، فالقدايمي كانوا يدركون أنّ الاختلاف والصّراع في المسائل الفكرية لا يخرج عن

23- الطّبري، تاريخ الرسل والملوك، 70/9-71.

24- يقول الطبري: "وأمره بامتحانهم هو وجعفر فمن قال القرآن مخلوق فودي به ومن أبى ذلك ترك في أيدي الروم.. وأمر أن يعطوا جميع من قال إن القرآن مخلوق ممن فودي به ديناراً لكل إنسان من مال حمل معهم"، المصدر نفسه، 72/9.

25- القاضي عياض، ترتيب المدارك، 404/1.

26- يروي أبو العرب أنّ موسى بن معاوية دخل على ابن أبي الجواد وهو يومئذ قاضي القيروان فقال موسى: سمعت فلانا وفلانا وذكر جماعة من أهل العلم يقولون: من قال القرآن مخلوق فهو كافر فقال له ابن أبي الجواد لقد أعمى الله قلبك كما أعمى عينيك"، كتاب المحن، تحقيق يحيى وهيب الجبوري، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983، ص 454.

27- الدباغ، معالم الإيمان، 131/2-132. وانظر حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، ط 1، بيت الحكمة، تونس، 1990، المجلد الأول، 901/2.

28- أبو العرب، المصدر المذكور، ص 454.



حدّ الاعتدال عندما يظلّ في إطار الجدل والتصنيف، لكنّه يخرج إلى حدّ العنف والغلوّ حينما يتحوّل إلى القتال وسفك الدماء والضرب<sup>29</sup>.

### أ- مستوى العنف والغلوّ في المحنة:

يجدر أن نشير إلى أنّ هذا المستوى لم يختصّ به فريق دون آخر، فأحياناً يكون المعتزلي ممارساً للعنف، وأحياناً أخرى يضحى هو المتعرض للعنف، وطوراً يكون السنّي هو المضطهد، وطوراً آخر يكون هو المضطهد.

ويعدّ مثال الفقيه المالكي السنّي سحنون بن سعيد التنوخي أهمّ الأمثلة في هذا السياق؛ فقد تعرّض إلى محنتين؛ أولاهما كانت في عهد الأمير زيادة الله ثالث أمراء الدولة الأغلبية (201هـ-223هـ). وتمثّلت في امتناعه عن صلاة الجنازة خلف القاضي المعتزلي ابن أبي الجواد، فأمر الأمير بضربه خمس مئة سوط وبحلق رأسه ولحيته. لكنّ سحنون نجا من العقاب بفضل تدخل الوزير السنّي علي بن حميد الذي ذكّر الأمير أنّ أحد الأمراء قبله، إنّما هلك لضربه البهلول بن راشد<sup>30</sup>.

والملاحظ أنّ موقف سحنون من القاضي، إنّما يعود إلى تبنّي ابن عبد الجواد القول بخلق القرآن، ممّا يجعله فاسقاً في نظر سحنون، فلا تصحّ بذلك إمامته ولا يجوز الصلاة خلفه. ولئن لم تشر أقدم رواية لهذه المحنة لدى أبي العرب في كتابه المحن إلى هذا المعطى صراحة، فإنّ القاضي عياض صرّح به في روايته لها<sup>31</sup>.

29- روى الوزير السراج (ت 1149هـ) في ترجمة أبي عمران الفاسي نزيل القيروان (ت 430هـ) خبراً عن أبي القاسم بن عبد الجليل بن أبي الرياحي فقال: "جرت عندنا مسألة بالقيروان في الكفار، هل يعلمون الله أم لا. فوقع فيها اختلاف كثير وتنازع بين العلماء والعامّة، وكان أكثر ما بلغ فيها رجل من المؤذنين يركب حماره ثم يذهب من واحد إلى آخر، لا يترك متكماً ولا فقيها إلا وينظره في هذه المسألة. فذكرت هذه المسألة لرجل من التجار من العامّة ركبت معه البحر. فقال لي: على الخبير بها سقطت، هذه المسألة، كما أخبر الشيخ أبو القاسم بن عبد الجليل بجرانها حتى تمارى الناس فيها عندنا في الأسواق ويقوم بعضهم إلى بعض، ويخرجون عن حدّ الاعتدال من الجدل إلى القتال"، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، 258/1-259.

30- من أقدم من روى هذه المحنة أبو العرب إذ قال: "وحدثني محمد بن محمد بن خالد عن محمد بن سحنون، وقد حدثني ببعضه محمد بن بسطام عن محمد بن عديروس، قال: صلّى ابن أبي الجواد، وهو يومئذ على جنازة وهب، وكان وهب أخا لسحنون من الرضاة، قال: فرجع سحنون عن الصلاة خلفه. قال: فكتب ابن أبي الجواد القاضي إلى الأمير زيادة الله يعلمه بذلك، فأمر الأمير برسول إلى صاحب مدينة القيروان أن يضرب سحنون بن سعيد خمس مائة سوط وبحلق رأسه ولحيته فبلغ ذلك علي بن حميد الوزير يومئذ، وكان الأمير زيادة الله نام في قائلته، فأمر علي بن حميد الوزير البريد أن يتوقّف عن السير، ثمّ تلطّف حتى دخل على الأمير فقال له: بلغني، أعزّ الله الأمير، أنّك أمرت أن تفعل بسحنون كذا وكذا. قال: نعم. قال: فلا تفعل فإنّ الكعبي محمد بن مقاتل (ت 184هـ) وهو أمير يومئذ، إنّما هلك لضربه البهلول بن راشد. فقال له: نعم، وهذا مثل البهلول، قال له: نعم، وقد حبست الرسول شفقة والله مني على الأمير فقال له: نعم ما فعلت..."، المحن، ص 457.

31- يقول القاضي عياض: "قال غير واحد من العلماء بالأثر كان سحنون قد حضر جنازة فتقدّم ابن أبي الجواد الذي كان قاضياً قبله. وكان يذهب إلى رأي الكوفيّين ويقول بالملوق فصلّى عليها. فرجع سحنون ولم يصلّ خلفه" ترتيب المدارك 353/1.

أما محنة سحنون الثانية، فكانت في عهد أحمد بن الأغلب في سنة 231 هـ، فقد تبنّى هذا الأمير رسمياً عقيدة خلق القرآن، وأعلنها على منابر المساجد وحاول أن يفرضها على الناس. فتوارى سحنون عند أحد الزهاد في قصر زياد المرابط، إلا أن الأمير أرسل من يجلبه إليه لامتحانه، فلما نفى خلق القرآن وهو في مجلس الأمير حكم القاضي ابن أبي الجواد عليه بالكفر وبالقتل نتيجة ذلك. إلا أنه نجا مرة أخرى بفضل حجة القائد داود بن حمزة الذي عد القتل السريع يريحه لكن القتل البطيء يعذّبه، وهو يتمثّل في منعه من الإفتاء ومن تعليم الناس وحبسه في منزله<sup>32</sup>. ولا شك في أنّ هذا العقاب يعدّ شكلاً من أشكال الغلوّ والعنف المعنوي والمادي، لكنّه عنف أقلّ حدّة ممّا تعرّض له بعض العلماء في بغداد وفي مصر في المحنة ذاتها فقد ضرب عدد منهم وقتل عدد آخر.

والملاحظ أنّ كثيراً من الأخبار التي حفّت برواية المحنة تبرز سحنون في صورة المضطهد الذي ينجو دائماً ممّا يدبّر له من مكائد بفضل تدخل العناية الإلهية، وبفضل حبّ الله له. وقد يكون التعصّب المذهبي وراء بعض هذه الأخبار.

ولعلّ السؤال الذي يفرض نفسه هنا، هو: لماذا اختير سحنون ليكون الفقيه الممتحن من قبل السلطة السياسية في محنة خلق القرآن بالقيروان؟ وما هي خلفيات ذلك؟

من الواضح أن اختيار سحنون يعود إلى أنّه أحد أكثر فقهاء القيروان علماً ومنزلة لدى الناس. وامتحان السلطة له بمثابة الرّسالة الموجّهة إلى غيره بما ينتظر من لا يقول بخلق القرآن من عقاب. ويعدّ هذا الحدث علامة على إدراك السلطة الأغلبية، مثلها في ذلك مثل الخلافة العباسية، تعاظم خطر أهل الحديث والسنة منذ مطلع القرن الثاني للهجرة وتهديد كبار العلماء لها بما حازه من سلطة لدى عامّة الناس، بل لدى الخلافة ذاتها. ولعلّ هذا السبب هو الذي يفسّر تصادم كثير من كبار العلماء مع السلطة السياسيّة، ومن ذلك أنّ البيهلول بن راشد امتحن على يد العكي أمير القيروان "وقيل له إنّه يقع في سلطانك وضّعف عنده أمره. فأمر به فتحاشد الناس معه فزاده ذلك حنقاً عليهم وأخرج إليهم الأجناد ففضّوهم وأمر بتجريدته وضربه بالسياط"<sup>33</sup>. أمّا ابن فروخ فقيه القيروان وزاهدها، فقد كان كما وصفه الذهبي لا يهاب الملوك في نهيمهم عن الظلم، وكان كثير

32- يروي أبو العرب عن محمد بن سحنون: "فلما وصل سحنون إلى أبي جعفر جمع له قواده ووزراءه وقاضيه ابن أبي الجواد، وكان في القوم داود بن حمزة القائد، فقال أبو جعفر لسحنون: ما تقول في القرآن، فقال سحنون: أصلح الله الأمير، أما شيء أبديه من نفسي فلا، ولكن الذي سمعت ممن تعلمت منه وأخذت ديني عنه فهم كانوا يقولون إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق، قال: فقال له ابن أبي الجواد: أيها الأمير إنه قد كفر فاقتله ودمه في عنقي، وقال مثل ذلك نصر بن حمزة القائد وغيره، فقال لداود بن حمزة: ما تقول يا داود، قال: أصلح الله الأمير، قتله بالسيف راحة له ولكن اقتله قتل الحياة، يؤخذ عليه الحملاء (أي الكفلاء)، وينادى عليه بسماط القيروان لا يفتي ولا يُسمع أحداً ويلزم داره، ففعل ذلك أبو جعفر وترك قول من أشار عليه بقتله وأمر بأحد عشر حميلاً فكان ممن تحمل به ابن علاقة وغيره ومنع الله عز وجلّ القوم من قتله"، المحن، ص 456.

33- القاضي عياض، ترتيب المدارك، 193/1.

التهدّد والتأله<sup>34</sup>. وكان يرى الخروج على أئمة الجور إذا اجتمع ممّن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر عدد أهل بدر<sup>35</sup>. ولا شكّ أنّ عالمًا يقف مثل هذه المواقف، لا بدّ أن يخيف النظام الحاكم، لذلك كانت محاولة جلبه إلى صفّ ذلك النظام بتوليته القضاء.

يروى الذهبي أنّ روح بن حاتم المهلبّي قال لابن فروخ: إنّك ترى الخروج علينا قال: نعم، فغضب منه فقال ابن فروخ: وذلك مع ثلاثمئة وسبعة عشر عدة أصحاب بدر كلّهم أفضل منّي فقال روح أمناك من أن تخرج أبدًا. ثمّ ألزمه بالقضاء وأقعه في الجامع، وأمر الخصوم أن يأتوه فجعل يبكي ويقول: ارحموني رحمكم الله<sup>36</sup>.

وأما القاضي ابن غانم، فإنّه بلغ منزلة سامية، وكان من إكرام الخليفة له إذا كتب كتابًا لإبراهيم بن الأغلب يقول له فيه: وأنا لا أفكّ لك كتابًا حتّى يكون مع كتابك إليّ كتاب ابن غانم<sup>37</sup>.

و بخصوص الإمام سحنون، فإنّ المنتبّع لأخبار علاقته بالأمرء الأغلبية، يستنتج بيسر أنّ محنته في مسألة عقديّة ليست سوى تصفية حساب مع أحد أكثر خصوم السلطة الأغلبية، فسحنون كبرت منزلته العلميّة، وأصبح بمثابة رئيس فرقة تنافس سلطة الدولة. ويروي القاضي عياض: أنّه انتهت إليه الرئاسة في العلم بالمغرب وحصل له من الأصحاب ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالك<sup>38</sup>، ويذكر الدبّاغ أنّ أصحابه بلغ عددهم نحو سبعمئة رجل<sup>39</sup>.

والأخطر من هذا، أنّ رجلاً بمثل هذا النّفوذ، كان يتّخذ موقفًا محترزًا من السلطة، بل مقاطعًا لها أحيانًا؛ فلئن كان العلماء يأكلون طعام علي بن حميد الوزير مثلاً، فإنّ سحنون وولده كان يمتنع عن ذلك امتناعه من زيارتهم أو من الشّرب من الآبار التي يبنونها<sup>40</sup>.

ويبدو أنّ ما يخيف في شخصيّة سحنون سلطته على العامّة التي كانت تخيف كلّ سلطان. وقد كان بإمكان سحنون تعبئة العامّة ضدّ الأمير أو ضدّ كلّ من يظلم الناس أثناء تولّيه إحدى مسؤوليّات الدولة؛ وبرزت هذه

34- الذهبي، تاريخ الإسلام، 215/11.

35- القاضي عياض، ترتيب المدارك، 198/1.

36- الذهبي، المصدر المذكور، 215/11.

37- عياض، ترتيب المدارك، 181/1.

38- المصدر نفسه، 343/1.

39- الدبّاغ، معالم الإيمان، 90/2.

40- عياض، المصدر المذكور، 359/1.

القدرة عندما تولّى القضاء في عهد محمد بن الأغلب خلفاً لابن أبي الجواد؛ فقد أتى أحد قواد بني الأغلب من بعض الحروب التي كانت في إفريقية بعدة حرائر أسيرات، وكان بينهما سبع عشرة من سبي الجزيرة قرشيات وعربيات، فأرسل سحنون إلى جميع النواحي والأقطاع، فاجتمع إليه ألف رجل فتخيّر مئة شابّ منهم ليخلصوا الأسيرات من دار ذلك القائد<sup>41</sup>.

وهذه السلطة التي كانت لسحنون جعلت الأمير يخشى من عزله من منصب القضاء، يقول عياض: "وذلك أنّ ابن الأغلب لمّا لم يمكنه عزل سحنون لمكانه من قلوب الناس، وقصده من التحامل على رجاله والتضييق عليهم، ولّى الحكم معه الطنبلي، رجلاً جافياً جاهلاً مضادة لسحنون فكان يرفع الخصوم عن بابه إلى الطنبلي"<sup>42</sup>.

ويبرز الصّراع بين السلطة السياسيّة والسلطة العلميّة من خلال أنموذج الإمام سحنون، أنّ الهدف الخفيّ لكل الفرق والسلطات السياسيّة أو المذهبيّة الظّهر بتأييد العامّة وطاعتها. ولئن كان الفقهاء السنيّون هم من نجح أكثر من غيرهم في استقطاب فئات العامّة، فإنّ المعتزلة حاولت منذ واصل بن عطاء(ت131هـ) أن تنشر مبادئها في صفوف العوامّ، واتخاذ دعاة من أجل ذلك<sup>43</sup>. يروي الخشني في هذا الصدد أنّ من أعلام المذهب الحنفيّ في القيروان رجل يعرف بالعمشاء، يذهب إلى خلق القرآن وينظر فيه المناظرة الشّديدة وله في ذلك داعية، وله لمة وأصحاب وأحزاب في ذلك يجالسونه ويختلفون إليه<sup>44</sup>. ولعلّ هذا الشّاهد إن انضمّت إليه شواهد أخرى من المصادر الاعتراليّة وغيرها<sup>45</sup> كفيل بتعديل النظرة التي ذكرها أبو سعيد نشوان الحميري(ت573هـ) "وقيل إن المعتزلة ينظرون إلى جميع المذاهب كما تنظر ملائكة السّماء إلى أهل الأرض"<sup>46</sup>.

ولئن كان سحنون ضحيّة لامتحان السّلطة وقاضيها ابن أبي الجواد، فإنّه تحوّل عند تولّيه القضاء إلى ممتحن لنفس القاضي الذي حكم عليه يومًا بالإعدام. وقد تطرّق الونشريسي إلى قضيّة سحنون مع ابن أبي الجواد، وما كان من ضربه مرارًا كثيرة حتّى مات في السّجن. وما كان من تأنيب الضّمير الذي عانى منه.

41- راجع المالكي، رياض النفوس، 310/1، وعياض، ترتيب المدارك، 351/1.

42- عياض، المصدر نفسه، 352/1.

43- يقول البلخي: "وفرق واصل رسله في البلاد يدعون إلى دين الله فأنفذ إلى المغرب عبد الله بن الحارث فأجابه الخلق، وهناك بلد يدعى البيضاء يقال إن فيه مائة ألف يحملون السلاح يعرف أهله بالواصلية"، الحميري، الحور العين، تحقيق كمال مصطفى، ط2، دار أزال، بيروت، 1985.

44- الخشني، طبقات علماء إفريقية، ص 76.

45- يروي ابن حجر أن الصّاحب بن عباد أحد رؤوس المعتزلة، كان له قوم يسمّوهم الدّعاة يأمرهم بالترّد إلى الأسواق وتحسين الاعتزال للبقال والعطّار والخبّاز ونحو ذلك، لسان الميزان، 415/1.

46- الحميري، الحور العين، ص 260.

يقول: وروي أنّ سحنون كان يقول بعد موته: مالي ولابن الجواد، وكأنه تخرج من موته خوفاً<sup>47</sup>.

وقد ذكرت عدّة روايات توضح سبب ضرب سحنون ابن أبي الجواد، تنصّ إحداها على أنّه فعل ذلك لما كان عليه من البدعة<sup>48</sup>.

ومهما يكن سبب هذه القضية، فهي مؤشّر إضافي على الصّراع السياسي والديني بين الفرق الإسلاميّة في القيروان في القرن الثالث للهجرة؛ وعلى أنّ هذا الصّراع كان على الوجود وعلى الاستمرار، وأنّه لم يكن يرنو إلى التعايش بين الفرق بقدر ما كان يطمح إلى إقصائها لتبقى فرقة وحيدة تهيمن على السّاحة. ويؤكّد هذا قيام سحنون لأوّل مرّة بطرد حلقات أهل البدع؛ أي غير السنّيين الذين كانوا يجتمعون بجامع القيروان<sup>49</sup>.

ولئن اعتبر هذا العمل من إصلاحات سحنون وإنجازاته القضائيّة<sup>50</sup> ومن وسائل التمكين للمذهب المالكي في القيروان وفي إفريقيّة، فإنّه من منظور قيمنا الحديثة خروج على الاعتدال وحظر للاختلاف في الرّأي. لكن إلى أيّ مدى يصحّ أن نحكم على سلوك أناس عاشوا في ظلّ ثقافة مختلفة اختلافاً جذرياً عن ثقافة عصرنا من خلال المعايير الحديثة؟

### ب- مستوى الاعتدال والتّسامح في محنة خلق القرآن:

يمكن أن نعتبر تجلّيات الغلوّ والعنف الحاقّة بمسألة خلق القرآن في القيروان قليلة ومحدودة ومرتبطة ببعض الفترات التي شهدت تدخلاً سياسياً في هذه المسألة، وأنّ الموقف العام تميّز بالهدوء والاعتدال، وهو يعني في نظرنا بحث هذه المسألة فكرياً ونظرياً، إن من خلال المصنّفات، وإن من خلال المناظرات والجدل الذي تمّ بين ممثلي المعتزلة وممثلي الفكر السنّي من المالكيّة أساساً.

ولم يصلنا في مستوى التّأليف المتعلّقة بموضوعنا أيّ كتاب من تلك الفترة خاصّ بالقيروانيين، لكنّ كتب الطبقات أمّدتنا ببعض العناوين التي ترجع إلى النّصف الثّاني من القرن الثالث للهجرة وما بعد ذلك، منها ما ذكره الخشني في ترجمته لسليمان بن أبي عصفور المعروف بالفراء (ت 269 هـ)، وهو من طبقة العراقيين؛ أي الأحناف في القيروان، كان يقول بخلق القرآن، وكان من أهل الجدل والمناظرة في ذلك، رحل ودخل بغداد

47- الونشريسي، المعيار المغربي، المغرب، 1981، 122/10. وانظر قول محمد الطالبي عن محمد بن الأغلب: "فسلم ابن أبي الجواد إلى سحنون الذي تولى بعده القضاء بإفريقيّة فعذبّه وقتله"، الذّولة الأغليبيّة، ص 264. وانظر قول يوسف شخت إن سحنون قتل ابن أبي الجواد قتلاً بطيئاً بواسطة الضرب، فصل أغلبية (Aghlabides) بدائرة المعارف الإسلاميّة، ط2 (بالفرنسيّة)، 257/1

48- راجع ما أورده محقق كتاب معالم الإيمان للدباغ، 89-88/2

49- انظر د. محمد زينهم محمد عزب، الإمام سحنون، دار الفرجاني، القاهرة طرابلس، لندن، ص 159.

50- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

وصحب بشرًا المريسي، وأبا الهذيل العلاف وغيرهما من كبار المعتزلة، وله كلام في مشكل القرآن وكتاب ألفه فيه، وسمعت من يذكر أنه سلخه من كتاب "مشكل القرآن" لقطرب النحوي، وله كتاب في أعلام النبوة، وله كتب في مذهبه في خلق القرآن<sup>51</sup>.

ولعل ما يستوقفنا في هذه الترجمة، أن الفراء المعتزلي زار بغداد في القرن الثالث الهجري، وكانت أقوى مركز اعتزالي في ذلك الزمن بعد أن افتكت الزعامة من البصرة التي كانت مركزًا اعتزاليًا قويًا في القرن الثاني الهجري. فضلاً عن ذلك، فهذا المعتزلي متهم بالسطو على كتاب أحد المشاركين. ومهما تكن صحة هذا الخبر أو خطؤه، فإنه يدل على ضعف جانب الابتكار في فكر هذا الرجل. ولعل هذا ما يفسر أنه لم يعرف إلا بكتاب "أعلام النبوة" بشكل خاص،<sup>52</sup> وليس من المستغرب أن يكون للفراء المعتزلي عدة كتب في خلق القرآن، وهذه المسألة ظلت مثيرة للخلاف بين السنن والمعتزلة، وكان كل فريق يثبت موقفه ويرد على الفريق الآخر نافيًا موقفه من خلال مؤلفات في الغرض. وأبرز ما يؤكد هذا الجدل الفكري من خلال التصانيف ما يرويه الخشني في ترجمته لمحمد بن الكلاعي، وهو من معتزلة القيروان القائلين بخلق القرآن يقول عنه: "وكان قد ألف على سعيد بن الحداد (ت 330هـ) كتابًا يناقضه فيه، ألف للرد على من يقول بخلق القرآن فتولّى إبراهيم بن المقتول مناقضة الكلاعي في كتابه"<sup>53</sup>.

وقد اتصف كتاب إبراهيم بن البرذون (ت 297هـ) المذكور بطابع نقدي حادّ وتضمّن فصولاً حجاجية تنبّه على ما اتسم به كتاب الكلاعي من التّقصير الشّديد والخطأ الشّنيع. ولعلّ هذا النّقد قد تجاوز حدّ الاعتدال ليضحى بمثابة تفريج عن غيظ كامن في نفس صاحبه، ممّا أدّى إلى التّأمر عليه. ولئن لم يفصح الخشني عن طبيعة هذه المؤامرة التي أدّت إلى سفك دمه<sup>54</sup>، فإن بعض المراجع تفيدنا أنّ الكلاعي وشى به عند عبيد الله المهدي الذي أمر بقتله<sup>55</sup>.

والظاهر أن تولّى الإمام سحنون منصب القضاء، لم يؤدّ إلى القضاء على الحضور الاعتزالي في القيروان. وقد أحصى المرحوم حسن حسني عبد الوهاب العلماء الأفارقة من أهل الكلام والجدل خلال القرن

51- الخشني، طبقات علماء إفريقية، ص 75.

52- قال عنه الدكتور محمد سيف: "وهذا أول كتاب نلقاه للمغاربة في أعلام النبوة وذكر أنه لم يظهر أي أثر لكتاب ابن أبي عصفور في مصنفات من أتى بعده ممن ألفوا في أعلام النبوة راجع أحمد بن محمد فكير، وهو باحث جامعي مغربي، من مصادر السيرة النبوية: كتب دلائل النبوة. www.saaaid.net

53- الخشني، طبقات علماء إفريقية، ص 76.

54- يقول الخشني متحدّثاً عن موقف الكلاعي من هذا النّقد الحادّ الموجّه إليه: "فكان ذلك سبباً لعنايته عليه من ابن ظفر في سفك دمه" المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

55- السيد محمد أبو العزم داود، الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين، المكتبة الفيصلية، مكنة المكرمة، 1405هـ، ص 263.

الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين، فذكر أنهم يبلغون الثلاثين متكلمًا، وأحصى من المعتزلة في الفترة ذاتها ما يقارب العشرين رجلاً<sup>56</sup>.

وتعدّ المناظرات بين المتكلمين السنّيين والمعتزلة من أهمّ مظاهر التسامح والاعتدال، ولم تكن منقطعة بالتأكيد عن أجواء الجدل الفكري في المشرق، بل إنّ هذه الصلّة كثيرًا ما كانت مباشرة، إمّا من خلال حضور بعض المشاركة في المناظرة أو من خلال الرّسائل بين ممثلي المشرق والقيروان. فمن ذلك خبر رواه المالكي عن مناظرة جمعت محمد بن سحنون وشيخًا معتزليًا قادمًا من المشرق يقول بخلق القرآن؛ هو أبو سليمان النحوي صاحب الكسائي الصغير، ومن مظاهر التسامح أنّ هذه المناظرة انعقدت في مجلس الوزير السنّي علي بن حميد<sup>57</sup>.

وما يدلّ على أنّ الجوّ الفكريّ في المشرق والقيروان كان متشابهًا، رسالة ابن أبي زيد القيرواني إلى أحد معتزلة بغداد جوابًا على رسالة كتب بها إلى المالكيين من أهل القيروان ينصحهم فيها باعتناق المذهب الاعتزالي<sup>58</sup>.

ولئن لم تصلنا إلا نماذج قليلة من المناظرات التي كانت تقع بين ممثلي الفرق الإسلاميّة في القيروان، فيبدو أنّ الطابع الطاعي عليها كان الحدة والشدة، مثلما نقل عن أبي إسحاق المعروف بالعمشاء؛ فقد كان يتناظر في خلق القرآن المناظرة الشديدة. وقد ذكر الخشني عددًا من المعتزلة الذين عرفوا بالمناظرة في هذه المسألة؛ كالقموذي وابن أبي روح الملقب بالبعلة ومحمد المعروف بالمسحي وأبي الفضل بن ظفر، إلا أن هذا لا يعني غياب من يناظر في خلق القرآن على غير المبالغة كالذين تقدم ذكرهم، مثل أحمد بن محمد المعروف بابن شهر قاضي برقة<sup>59</sup>.

والجدير بالذكر أنّ هذه المناظرات التي كثيرًا ما كانت تستهدف العوام لجلبهم إلى حظيرة هذا المذهب أو ذلك، قد جلبت لأصحابها بعض المضايقات التي تسامحوا معها. وهذا حال محمد بن سحنون الذي صبر على

56- حسن حسني عبد الوهاب، ورفقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار، تونس، 1965، القسم الأول، ص 219.

57- يقول المالكي: "وحضر محمد بن سحنون يوما عند علي بن حميد الوزير وكان علي يبيغيه... وكان في مجلسه جماعة ممن يحسن المناظرة، وأحضر معهم شيخا قادمًا من المشرق يقال له أبو سليمان النحوي صاحب الكسائي الصغير. وكان يقول بخلق القرآن ويذهب إلى الاعتزال فقال علي بن حميد الوزير لمحمد: "يا أبا عبد الله إنّ هذا الشيخ وصل إلينا من المشرق وقد تناظر معه هؤلاء فناظره أنت".

58- يقول ابن عساکر: "قرأت بخط علي بن بقاء الوراق المحدث المصري رسالة كتب بها أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني الفقيه المالكي -وكان مقدم أصحاب مالك بالمغرب في زمانه- إلى علي بن أحمد بن إسماعيل البغدادي المعتزلي جوابا عن رسالة كتب بها إلى المالكيين من أهل القيروان يظهر نصيحتهم بما يدخلهم به في أقاويل أهل الاعتزال... تبيين كذب المفتري، ص 405.

59- راجع الخشني، المصدر المذكور، ص 77.



أذى رجل استأجره العراقيون؛ أي الأحناف المعتزلة لسببه،<sup>60</sup> وحال القاضي محمد بن أسود الصديني الذي قيل له إن رجلاً خسيماً يشتم من يقول بخلق القرآن، فترفع عن معاقبته حتى لا يشهره ويجعل له قدراً لدى الناس<sup>61</sup>. ويبدو أنّ هذه المناظرات تكتّفت واتّسعت بعد القرن الثالث الهجري لأنّ الطرف الشيعي قد دخل فيها. ولعلّ هذا ما يفسّر بلوغ عدد مجالس المناظرة بين سعيد بن الحدّاد وبين الدّعاة من شيعة الفاطميين نحو الأربعين مجلساً حفظ لنا الخشني صور أربعة منها<sup>62</sup>.

## الخاتمة:

وفي الختام، إننا لا ندّعي أنّنا أحطنا بكلّ ما يتعلّق بمسألة خلق القرآن، لكن حسبنا أنّنا لفتنا الانتباه إلى بعض أوجه أهمّيّتها في تاريخ القيروان المذهبي والفكري والسياسي.

ويتّضح لنا بعد هذه الدّراسة، أنّ مسألة خلق القرآن يجدر أن تدرس في ضوء صلاتها بكثير من المسائل الكلاميّة التي ارتبطت بها كصفات الله ورؤية الله، ولا ينبغي إهمال تفاعل هذه المسائل وأصحابها مع الثقافة الخارجية سواء في عاصمة الخلافة أو في كبرى المراكز العلميّة في ذلك الزمن مثل مصر والأندلس.

ولئن كانت محنة خلق القرآن نتيجة صراع مذهبي سنّي اعتزالي، فإنّها في باطنها صراع سياسيّ تبتغي منه كلّ فرقة احتكار السلطة الدينية والعلميّة في المجتمع، وفرض عقيدتها على المجتمع وعلى النظام السياسي القائم<sup>63</sup>. وقد يفسّر التدخّل السياسي في هذه المحنة بعض أوجه الغلوّ والعنف فيها، لكن ما هو أهمّ من ذلك في نظرنا الأنظمة الاعتقاديّة الوثوقيّة المغلقة التي شكّلتها كلّ فرقة، وبمقتضاها تعتبر أنّ الحقّ لا يتجسّم إلا في أطروحاتها ولا ينطق به إلا أعلامها وأتباعها، وأنّ الباطل هو ما كان سوى ذلك.

إنّ آلية أمثلة الذات وشيطنة الآخر المخالف قد سارت في اتجاه غريب لتؤدّي أحياناً إلى منح المسلم المخالف مذهبياً مكانة تقلّ عن منزلة غير المسلم. وهكذا أدّت المسائل الكلاميّة والصّراع فيها في كثير من الأحيان إلى الانزياح عن مقاصد رسالة الإسلام ذات التوجّه العام لكل البشريّة، والتي تبتغي تحقيق المساواة بين المسلمين وإلغاء التفاضل بينهم على أساس القبيلة والعرق، وأضحت المسائل الكلاميّة تكرّس الفوارق المذهبيّة والاجتماعيّة، لكن مع هذا فإنّ معيار الإيمان الذي اعتبره الفقهاء والمتكلمون مقوماً رئيساً يحدّد

60- انظر هذه القصّة لدى المالكي، رياض النفوس، 451/1.

61- راجع الخشني، المصدر المذكور، ص 57.

62- حسن حسني عبد الوهاب، ورفقات، 259/1.

63- انظر مثلاً حسن حسني عبد الوهاب، كتاب العمر، المجلد الأول، 901/2.



الانتماء للجماعة، ظلّ ملتبساً يتغيّر حسب الطرف والسّياق والاجتهاد الشخصي والجماعة؛ وهذا ما يفسّر حضور أمثلة كثيرة من التّسامح في تاريخ محنة خلق القرآن وأمثلة كثيرة من العنف كذلك. ولا شكّ عندنا، أنّ التّسامح يحضر عندما يتذكّر أصحابه أن الطرف المخالف يشترك معهم في مبدأ جوهرّيّ كثيرًا ما ينسى هو التّوحيد.

لنعتبر في خاتمة هذا البحث بهذا الخبر المتعلّق بعون بن يوسف الخزاعي (ت 239هـ) المعروف بشدّته على أهل البدع وقيامه بالسّنة، فقد "أناه ثلاثة رجال فقالوا: مات عندنا رجل يقول بخلق القرآن فما نصنع به، فقال إن وجدتم من يكفيكم مؤنثته فلا تقربوه فسكتوا. ثم أعادوا السؤال ثانية، فأجابهم بمثل الأوّل. ثم أعادوا السؤال الثالثة أجابهم بمثل ذلك، فقالوا: لا نجد من يكفينا مؤنثته. فقال لهم: اذهبوا فواروه من أجل التّوحيد"<sup>64</sup>.

لا شكّ أن هذا الخبر يدلّ على بعض التّسامح من ناحية ترخيصه للعامّة بالصلاة على المبتدع بسبب انتمائه إلى الجماعة الإسلاميّة الموحّدة، لكنّه يدلّ أيضًا على أنّ النظرة القديمة إلى الإنسان تجعل منه كائنًا دينيًّا بالأساس، فحتّى إن غضّت الطّرف عن اعتقاده في بعض القضايا، فإنّها لا يمكن أن تغفل عن ركائز هذا الاعتقاد.

ولئن بقيت بعض آثار هذه النظرة مستمرة في واقعنا الحديث، فإن القيم الحديثة نجحت إلى حدّ كبير في جعل كثير من الناس يعتمدون في نظرهم إلى لإنسان معايير مغايرة لمعايير القدامى، منها معيار الإنسانيّة والمواطنة.

64- المالكي، رياض النفوس، 386/1.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun\_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية  
ص.ب : 10569  
هاتف: 00212537779954  
فاكس: 00212537778827  
info@mominoun.com  
www.mominoun.com